

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث

- الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحققين والباحثين والمعنيين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام.
- الآراء المنشورة لا تعبر عن رأي النشرة بالضرورة.
- ترتيب المواضيع يخضع لأمر فنية، وليس لأي أمر آخر.
- النشرة غير ملزمة بنشر كل ما يصل إليها، أو بإعادتها إلى أصحابها.

المراسلات : تعنون باسم : هيئة التحرير .

دور شهر - خيابان شهيد فاطمي - كوچه ٩ - پلاك ٥

هاتف : ٥ - ٧٣٠٠٠١ - فاكس : ٧٣٠٠٢٠ .

البريد الإلكتروني : [e-mail : turathuna@rafed.net](mailto:turathuna@rafed.net)

ص . ب . ٩٩٦ / ٣٧١٨٥ - قم - الجمهورية الإسلامية في إيران .

قراثنا .

المعدد : الثاني [٦٢] السنة السادسة عشرة / ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى

الآخرة ١٤٢١ هـ .

الإعداد والنشر : مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث .

الكمية : ٢٠٠٠ نسخة .

الفلم والألواح الحساسة (الزنكغراف) : تيزهوش / قم

المطبعة : ستاره - قم .

قيمة الاشتراك السنوي في نشرة **قراثنا** ٤٠٠ تومان في إيران ، و ٢٥ دولاراً أمريكياً

في بقية أنحاء العالم .

عدالة الصحابة

(٥)

الشيخ محمد السند



بسم الله الرحمن الرحيم

الوجه التاريخي :

ثمَّ إِنَّهُ بقي وجه آخر أو أخير يتمسك به القائل بعدالة الصحابة ،
- بالترديد المتقدم في معنى العدالة وفي دائرة الصحابة المرادة لذلك القائل -
وهو : إنَّ الصحابة هم الَّذِينَ قاموا بفتوحات الإسلام ونشر الدين في أرجاء
المعمورة ، وهذا بعدما عانوا ما عانوا مع النبي ﷺ في الغزوات الأولى ..
وهذا الوجه - مع غُضِّ النظر عن التحليل الآتي فيه ، وعن الخوض
في حقيقته - ما هو المقدار اللازم منه في الحجّة المبحوث عنها في عدالة
الصحابة ؛ فقد تقدّم أنّ صدور العمل الصالح أو الحسن من شخص - بعد
افتراض ذلك - لا يلازم عدالته وأستقامته في كلّ أفعاله الأخرى ، فضلاً عن
عصمته وإمامته في الدين .

ففي كثير من الغزوات التي قام بها المسلمون في عهد النبي ﷺ
ارتكب مَنْ صحبه ﷺ فيها أفعالاً تعدّ في الشرع من الخطايا الكبيرة

المغلظة عقوبتها، وقد ذكرنا شطراً منها في ما سلف، ونذكر هنا شطراً آخر منها:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

والآية تبيّن أنّ الواجب على المسلمين الإثخان في قتل المشركين، وعدم أخذ الأسرى والحرب قائمة قبل أن يهدّ صفّ المشركين ويستولي عليهم الرعب.

وقد وصفت الآية أنّ العقوبة لولا عفو الله تعالى لكانت عذاب، ووصفته بالعظيم، وظاهر الآية وبمقتضى الإثخان هو: كون الواجب القتل لا الأسر أثناء قيام الحرب مع المشركين وقبل انتهائها بتقويض معسكرهم، لا ما يقال: إنّ الآية نازلة إلى حكم الأسرى بعد انتهاء الواقعة، وإنّ الواجب هو قتلهم لا مفادتهم؛ لأنّه يخالف الآيات اللاحقة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، الدالة على أنّ القتل المطلوب هو أثناء الحرب لا بعد أن تضع الحرب أوزارها.

وكُلّ هذا في غزوة «بدر»، وكذلك الحال في غزوة «حنين»، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ

(١) سورة الأنفال ٨: ٦٧ و ٦٨.

(٢) سورة الأنفال ٨: ٧٠ و ٧١.

وَلَيْتُمْ مَدِيرِينَ ﴿١﴾ ، والفرار في اللقاء من الكبائر التي توَعَدَ الله عليها النار ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مَنْحَرَفًا لِقَتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

وكذلك الحال في غزوة «أحد» كما أشرنا إليه سابقاً في سورة آل عمران ، وقد قتل خالد بن الوليد بنو جذيمة في فتح مكة حينما بعثه الرسول ﷺ حولها في سرايا تدعو إلى الله تعالى ولم يأمرهم بقتال ، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ، فغدر خالد بهم وقتلهم ، فانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ فرفع يديه إلى السماء ثم قال : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» ثلاث مرّات ؛ ثم أرسل رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام فودى لهم الدماء وأرضاهم (٣) .

فتبين أن لا تلازم بين صدور العمل الصالح - على تقدير ثبوته - وبين استقامة الشخص في بقية أعماله ، فضلاً عن عصمته وإمامته في الدين .

أمّا الخوض في الفتوحات بشكل إجمالي فالنظرة المقابلة تقيم الفتوحات التي حصلت بأنها كانت بمثابة سدوداً أمام انتشار الدين في كل أرجاء المعمورة ، فإن هذا الدين الحنيف لا يصمد أمام بريق نوره الأقوام البشرية إلا وتنجذب إليه ، وهذا هو عمدة نهج النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام ..

قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحَ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ

(١) سورة التوبة ٩ : ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال ٨ : ١٥ و ١٦ .

(٣) المغازي للواقدي - ٨٧٥/٣ - ٨٨٤ .

في دين الله أفواجاً^(١)، فالدخول الفوجي الأفواجي للناس كان بحكم الانجذاب إلى عظمة الدين، والمثالية التي يتصف بها صاحب الدعوة، والكيان الداخلي الذي بناه ..

إلا إن مجموع الممارسات في أحداث الفتوحات كبّلت الدين، وألبست الإسلام أثواباً قاتمة، وولدت أنطباعاً لدى بقية الأمم والملل أن الدين الحنيف هذا هو دين السيف والدم، ولغته لغة القوة بالدرجة الأولى وفي القاعدة الأصلية له، لا أنه دين الفطرة العقلية، ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾^(٢).

ومن ثم أخذت بعض الكتابات في العالم العربي الإسلامي منذ نصف قرن في التنكّر لقانون الجهاد الابتدائي في الإسلام، باعتبار أنه يعني لغة القوة والعنف والعسكر، ورفضاً للغة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، التي هي من الثوابت الأولية لطريقة الدعوة إلى الإسلام، وربما تمسكوا بسيرة النبي ﷺ في جميع غزواته؛ إذ إنها لم تكن مبتدأة منه ﷺ، بل من مناوشات الكفار أولاً للمسلمين، وبذيل بعض الآيات من قبيل قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾^(٣) ..

وقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم

(١) سورة النصر ١١٠ : ١ و ٢ .

(٢) سورة الروم ٣٠ : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٩٠ .

من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿١﴾ ..

ونحوها من الآيات التي ظاهرها يوهم بأن القتال مخصوص بالمدافعة، وقد تسرّب مثل هذا النظر إلى بعض الأوساط الفقهيّة .

والذي أوقعهم في مثل هذا الوهم المخالف للمسلّمات الفقهيّة في الدين، هو ما جرى من الأحداث والممارسات في الفتوحات عبر تاريخ المسلمين ..

فإنّه قد وقع الخلط لديهم بين الجهاد الابتدائي وبين العدوان المبتدأ، وحصر الدفاع في الجهاد الدفاعي، مع إنّ الجهاد الابتدائي ليس بمعنى الابتداء بالعدوان، بل إنّ الغطاء الحقوقي للجهاد الابتدائي هو الدفاع الحقوقي، وإنّ كان ابتداء الحرب من المسلمين بمعنى الضغط على الكفّار تحت تأثير القوّة، لكن ليس هو ابتداء عدوان، بل ابتداء الضغط بالقوّة لردّ العدوان الذي مارسه الكفّار تجاه المسلمين في ما سبق، فالابتداء في استخدام القوّة أمر، والابتداء في العدوان أمر آخر ..

وأما التمسك بسيرة النبي ﷺ، فلقد خلط أصحاب هذه المقولة بين الجهاد الابتدائي في مصطلح الفقهاء وبين العدوان الابتدائي الحقوقي، فالثاني لم يكن في سيرته ﷺ، أمّا الأول؛ فغزوة «بدر» أعظم الغزوات كانت ابتداء في استخدام القوّة منه ﷺ ردّاً على مصادرة أموال المسلمين في مكّة التي قام بها كفّار قريش، وردّاً على الغارات المباغطة التي كان يقوم بها أفراد منهم على أطراف المدينة، ونحو ذلك، لكنّ ذلك لا يستوجب

تصنيف غزوة «بدر» في الجهاد الدفاعي وإخراجه عن الابتدائي بالمصطلح الفقهي؛ إذ لكلّ شرائط تختلف عن الآخر، وكذا غزوة «خيبر» وغزوة «حنين» وغزوة «تبوك» وغيرها من الغزوات الكبرى أو الوسطى والصغيرة، وقوله تعالى في سورة الأنفال صريح في ذلك: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليقق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ ^(١)؛ فإن خروج قريش للحرب كان بعد انتداب أبي سفيان لحماية قافلة التجارة التي كان فيها عندما سمع بخروج المسلمين للاستيلاء عليها ابتداءً انتقاماً لما فعل المشركون بهم.

وقوله تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ ^(٢).

فإن هذه الآيات تفيد الغطاء الحقوقي الدفاعي للجهاد الابتدائي.

وكذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقلمت إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً

(١) سورة الأنفال ٨ : ٥ - ٨ .

(٢) سورة النساء ٤ : ٧٤ - ٧٦ .

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرَّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .
 ﴿٢﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ .

﴿٤﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
 حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى
 يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٥﴾ .

وتمام الكلام في أدلة الجهاد الابتدائي موكول إلى الكتب الفقهية ،
 إلا أن الغرض في المقام الإشارة إلى أن الخلط الذي حصل كان بسبب عدم
 التمييز بين الجهاد الابتدائي على مستوى التنظير وسيرة النبي ﷺ
 والفلسفة الحقوقية التي تنطلق منها مشروعيته ، وبين ما حصل من ممارسة
 في فتوحات البلدان ، فإن الانطباع الذي أورثته تلك الممارسات في أذهان
 الأمم الأخرى عاد عقبة كؤوداً أمام انتشار الدين الإسلامي في أرجاء
 المعمورة .

فالدين الإسلامي - بناءً على هذا الانطباع - غطاء يحرز من وراءه
 جمع الثروات ، وأستعباد البشر في صورة الرقيق ، ولقضاء النزوات بعنوان
 ملك الإماء ، فيهلك الحرث في البلدان ، ويبيد النسل البشري فيها ، وتحت
 ركام هذه الصورة حاولت تلك المجموعة من المثقفين والكتاب في الدول
 الإسلامية القيام بعملية الغسيل ، وتمييز الوجه الناصع للدين الحنيف عن
 تلك الممارسات ، لكنها خلطت بين حقيقة الجهاد الابتدائي وفلسفته

(١) سورة التوبة : ٩ : ٣٨ و ٣٩ .

(٢) سورة التوبة : ٩ : ٤١ .

(٣) سورة التوبة : ٩ : ٢٩ .

الحقوقية التي ينطلق منها، وبين ما حصل من ممارسات باسم الجهاد الابتدائي في الفتوحات التي جرت، ونضع القارئ أمام النقاط التالية كي يتبين له حقيقة الحال:

● **الأولى:** إن أغراض هذا التشريع للجهاد الابتدائي كما تدل عليه مجموع الآيات القرآنية المتعرّضة للجهاد الابتدائي - والتي تقدّمت الإشارة إلى بعضها - في الدين الحنيف، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١) ..

فإن هذه الآية تحدّد معلماً مهماً من معالم الجهاد، وإن الغرض فيه ليس جمع الغنائم والأموال والاسترقاق، بل قيادة الجموع البشرية وهدايتها إلى طريق الله وعبادته.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢).

وهذه ملحمة قرآنية عمّن هو في الصفوف مع النبي ﷺ وهو غسل اللسان والكلام، ولكن قلبه مخالف تماماً لما يظهره على لسانه، وهو شديد العداوة لله ولرسوله، والآية تُخبر أنّه إذا تولى الأمور فسوف يكون سعيه في ولايته فساداً في الأرض وإهلاكاً للحرث والنسل البشري، والحال

(١) سورة النساء : ٤ : ٩٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢ : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

إِنَّ الله تعالى لا يحب الفساد في التكوين ، وإن خاصية هذا المتولّي التعصّب لفعله أمام نصيحة الآخرين له .

كما إنّ هذه الآية تحدّد أغراض الدين - بما فيه الجهاد الابتدائي - بأنّه ليس للإفساد في الأرض وإهلاك الموارد الطبيعية أو الإنجازات المدنية التي حقّقها البشر ، ولا الهدف بتبديد النسل .

وكذا قوله تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولئى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إنّ الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأملئ لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ ^(١) .

فهذه الآيات ترسم ملحمة مستقبلية لجماعة ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ ، وهذه الجماعة قد أشار إليها القرآن الكريم في سورة المدثر ،

رابع سورة نزلت على النبي ﷺ في أوائل البعثة الشريفة في مكة المكرمة، وأعلن وجودها في صفوف الثلاثة الأولى التي أسلمت..

قال تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر^(١).

فإن الآيات تبين أن المخاطب بعدة الملائكة الموكلين بالنار على أربعة أقسام؛ الأول: «الذين آمنوا»، والثاني: «الذين أوتوا الكتاب»، والثالث: «الذين في قلوبهم مرض»، والرابع: «الكافرون»، وتخير أن الذي سيحصل له الإيمان هما القسمان الأولان، أما القسمان الآخران فسيحصل لديهما الارتياب.

ومن الواضح أن المرض الذي في القلب نحو من النفاق الخفي جداً، أي الذي لا يظهر على صاحبه، بل يبطنه في قلبه وخفاء أعماله، وقد ذكرنا أن الآيات القرآنية تتابع هذه الفئة والجماعة في كثير من السور، تحت هذا العنوان وبهذا الاسم إلى آخر حياة الرسول ﷺ ونزول القرآن..

والآيات هنا من سورة محمد ﷺ تبين أن غرض هذه الفئة هو تولي الأمور والأخذ بزمامها، وأن ذلك الغرض هو وراء انضمامها إلى صفوف المسلمين الأوائل؛ إذ إن خبر ظفر النبي المبعوث ﷺ كان

منتشراً قبل البعثة ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) .

فقد أشارت الآية إلى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون ويستظرون ويطلبون الفتح والنصر والظفر بالنبي - الذي سيبعث خاتماً - على الكافرين من مشركي الجزيرة العربية ، فلما عرفوا ذلك وأنه ﷺ قد بُعث كفروا برسالته .

فالسورة تبين أن غرض هذه الفئة ﴿ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ هو تسلّم مقاليد الأمور ، وأنها كانت على اتصال في الخفاء وأرتباط مع فئات معادية علناً لرسول الله ﷺ ؛ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا ... ﴾ ، وكذلك بقية السور المتعرّضة لهذه الفئة بهذا الاسم تشير إلى هذه العلاقات بين هذه الفئة وبين بقية الفئات الأخرى .

ثم إن السورة تبين أن طابع سياسة الدولة التي يقيمها أفراد هذه الفئة هو الإفساد في الأرض ، وقطع الصلة بمن أمر تعالى بوصلهم ومودّتهم ، كالذي تشير إليه آية ٢٠٥ من سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ .

فهذه الآيات تحدّد أن أغراض الشريعة - في أحكامها وقوانينها السياسية ، وأبواب فقه النظام والسياسة الشاملة للجهاد الابتدائي - ليس الإفساد في الأرض ، وإهلاك الحرث ، وتبديد النسل البشري ، فإن الله يحبّ صلاح الأرض وأهلها ، فهذا هو سبيل الله تعالى الذي أمرت الآيات القرآنية

العديدة بالقتال فيه ، وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ لأجل إزالة استضعافهم وإرجاع حقوقهم المغتصبة .

● الثانية : إنّ نظرة سريعة إلى الثروات المتكدّسة من الفتوحات توضّح معالم الأغراض وراءها ، والأسلوب الممارس فيها ، المباين للنهج المرسوم في الكتاب والسنة النبوية ، سيرة وأقوالاً ..

قال العلامة الأميني^(١) في جرده لثروات عدّة من الأسماء :

منهم : سعد بن أبي وقّاص ؛ قال ابن سعد : ترك سعد يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم ، ومات في قصره بالعقيق .

وقال المسعودي : بنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسّع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات^(٢) .

ومنهم : زيد بن ثابت ؛ قال المسعودي : خلف من الذهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار^(٣) .

ومنهم : عبد الرحمن بن عوف الزهري ؛ قال ابن سعد : ترك عبد الرحمن ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً ، وقال : وكان في ما خلفه ذهب قطع بالفؤوس حتّى مجلت أيدي الرجال منه ، وترك أربع نسوة فأصاب كلّ امرأة ثمانون ألفاً .

وقال المسعودي : ابنتى داره ووسّعها ، وكان على مربطه مائة فرس ،

(١) الغدير ٨ / ٢٨٢ - ٢٨٨ .

(٢) الطبقات الكبرى - لابن سعد - ٣ / ١٠٥ ، مروج الذهب ١ / ٤٣٤ .

(٣) مروج الذهب ١ / ٤٣٤ .

وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ بعد وفاته ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً^(١).

ومنهم: يعلى بن أمية؛ خلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار^(٢).

ومنهم: طلحة بن عبيد الله التيمي؛ ابتنى داراً بالكوفة تعرف بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وله بناحية سراة أكثر ممّا ذكر، وشيد داراً بالمدينة وبناها بالآجر والجصّ والساج..

وعن محمد بن إبراهيم، قال: كان طلحة يغلّ بالعراق ما بين أربعمئة ألف إلى خمسمئة ألف، ويغلّ بالسراة عشرة آلاف دينار أو أكثر أو أقل.

وقال سفيان بن عيينة: كان غلته كل يوم ألف وافيّاً. والوافي وزنه وزن الدينار.

وعن موسى بن طلحة: إنّه ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وكان ماله قد اغتيل.

وعن إبراهيم بن محمد بن طلحة: كان قيمة ما ترك طلحة من العقار والأموال وما ترك من النافي ثلاثين ألف ألف درهم، ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عروض.

(١) الطبقات الكبرى - لابن سعد - ٩٦/٣، مروج الذهب ٤٣٤/١، تاريخ اليعقوبي

١٤٦/٢، صفة الصفوة - لابن الجوزي - ١٣٨/١، الرياض النضرة - لمحّب الدين

الطبري - ٢٩١/٢.

(٢) مروج الذهب ٤٣٤/١.

وعن عمرو بن العاص: إن طلحة ترك مائة بهار في كل بهار ثلاثة قناطير ذهب، وسمعت أن البهار: جلد ثور، وفي لفظ ابن عبد ربّه من حديث الخشنى: وجدوا في تركته ثلاثمائة بهار من ذهب وفضّة.

وقال ابن الجوزي: خلف طلحة ثلاثمائة جمل ذهباً.

وأخرج البلاذري من طريق موسى بن طلحة، قال: أعطى عثمان طلحة في خلافته مائتي ألف دينار، وقال عثمان: ويلى على ابن الحضرمية (يعني طلحة) أعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً وهو يروم دمي يحرض على نفسي^(١).

ومنها: الزبير بن العوّام؛ خلف - كما في صحيح البخاري - إحدى عشرة داراً بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر، وكان له أربع نسوة فأصاب كل امرأة بعد رفع الثلث ألف ألف ومائتا ألف، قال البخاري: فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف، وقال ابن الهائم: بل الصواب أن جميع ماله حسبما فرض: تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف^(٢).

ومنها: عثمان بن عفّان؛ قال محمّد بن ربيعة: رأيت على عثمان مطرف خزّ ثمنه مائة دينار، فقال: هذا لثلاثة كسوتها إياه، فأنا ألبسه أسرها

(١) الطبقات الكبرى - لابن سعد - ١٥٨/٣، أنساب الأشراف ٧/٥، مروج الذهب ٤٣٤/١، العقد الفريد ٢/٢٧٩، الرياض النضرة ٣٥٨/٢، دول الإسلام - للذهبي - ١٨/١، الخلاصة - للخوارزمي - : ١٥٢.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجهاد/ باب بركة الغازي في ماله ٢١/٥، ذكره شراح الصحيح: فتح الباري، إرشاد الساري، عمدة القاري؛ شذرات الذهب ٤٣/١، وفي تاريخ ابن كثير ٢٤٩/٧ قيدها بالدرهم.

ولاحظ: الطبقات الكبرى - لابن سعد - ٧٧/٣، ومروج الذهب ٤٣٤/١.

به ..

وقال أبو عامر سليم: رأيت على عثمان برداً ثمنه مائة دينار.

قال البلاذري: كان في بيت المال بالمدينة سبط فيه حلّي وجواهر فأخذ منه عثمان ما حلّي به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد.. وجاء إليه أبو موسى بكيلة ذهب وفضّة فقسمها بين نسائه وبناته، وأنفق أكثر بيت المال في عمارة ضياعه ودوره.

وقال ابن سعد: كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، فأنتهت ذهبت.. وترك ألف بعير بالربذة وصدقات ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار.

وقال المسعودي: بنى في المدينة داراً وشيّد بها بالجعر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، وأقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة.

وذكر عبدالله بن عتبة: إن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلًا.

وقال الذهبي: كان قد صار له أموال عظيمة بالحرب، وله ألف مملوك^(١)..

وأما أعطيات عثمان إبان حكمه فقد جردها العلامة الأميني في غديره عن المصادر المزبورة، فقد أعطى:

(١) الطبقات الكبرى - لابن سعد - ٤٠/٣ وص ٥٣، أنساب الأشراف ٤/٣، الاستيعاب - في ترجمة عثمان - ٤٧٦/٢، الصواعق المحرقة: ٦٨، السيرة الحلبية ٨٧/٢، مروج الذهب ٤٣٣/١، دول الإسلام ١٢/١.

- ١ - مروان ، خمسمائة ألف دينار .
- ٢ - ابن أبي سرح ، مائة ألف دينار .
- ٣ - طلحة ، مائتا ألف دينار .
- ٤ - عبد الرحمن بن عوف ، ألفا ألف وخمسمائة وستين ألف دينار .
- ٥ - يعلى بن أمية ، خمسمائة ألف دينار .
- ٦ - زيد بن ثابت ، مائة ألف دينار .
- ٧ - ما اقتضه لنفسه في بعض الموارد ، مائة وخمسون ألف دينار .
- ٨ - ما اقتضه لنفسه في بعض آخر من الموارد ، مائتا ألف دينار .
ويبلغ المجموع أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرة آلاف دينار .
وفي مجموعة أخرى من الأعطيات :
- ٩ - الحكم ، ثلاثمائة درهم .
- ١٠ - آل الحكم ، ألفا ألف وعشرون درهم .
- ١١ - الحارث ، ثلاثمائة درهم .
- ١٢ - سعيد ، مائة ألف درهم .
- ١٣ - عبدالله ، ثلاثمائة ألف درهم .
- ١٤ - الوليد بن عقبة ، مائة ألف درهم .
- ١٥ - عبدالله ، مرة أخرى ، ستمائة ألف درهم .
- ١٦ - أبو سفيان ، مائتا ألف درهم .
- ١٧ - مروان ، مرة أخرى ، مائة ألف درهم .
- ١٨ - طلحة ، مرة أخرى ، ألفا ألف ومائتا ألف درهم .
- ١٩ - طلحة ، مرة ثالثة ، ثلاثون ألف ألف درهم .

٢٠ - الزبير ، خمسة وتسعون ألف ألف وثمانمائة ألف درهم .

٢١ - سعد بن أبي وقاص ، مائتان وخمسون ألف درهم .

٢٢ - ما اقتضه لنفسه مرّة ثالثة ، ثلاثون ألف ألف وخمسمائة ألف

درهم .

ويبلغ مجموع المجموعة الثانية مائة وستة وعشرون مليوناً وسبعمائة وسبعون ألف درهم . انتهى ملخصاً .

فلاحظ تلك المصادر والمراجع وغيرها لاستقصاء الأعطيات والقطائع !

وقال الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم في أبيات له :

قتلتُم أخي كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازيه
فأجابه عبدالله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة منها :

وشبّهته بكسرى وقد كان مثله شبيهاً بكسرى هديّه وضرائبه
وكان المنصور إذا أنشد هذا البيت يقول : لعن الله الوليد ، هو الذي فرّق بين بني عبد مناف بهذا الشعر^(١) .

وروى البلاذري : لما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد ابن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم ، جعل أبو ذرّ يقول : بشّر الكانزين بعذاب أليم ، ويتلو قول الله عزّ وجلّ : ﴿والَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) .. فرفع ذلك مروان

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٩٠ / ١ .

(٢) سورة التوبة : ٣٤ .

ابن الحكم إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذرٍ ناتلاً مولاه: أن انتهِ عما يبلغني عنك .

فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعَيِّبٍ من ترك أمر الله؟! فوالله لأن أُرْضِيَ الله بسخط عثمان أَحَبَّ إِلَيَّ وخير لي من أن أُسخط الله برضاه .

وكان أبو ذرٍ ينكر على معاوية أشياء يفعلها.. بعث إليه معاوية حبيب ابن مسلمة الفهري بمائتي دينار، فقال: أما وجدت أهون عليك مِنِّي حين تبعث إليَّ بمال؟! وردّها .

وبنى معاوية «الخضراء» بدمشق، فقال: يا معاوية! إن كانت هذه الدار من مال الله، فهي الخيانة، وإن كانت من مالك، فهذا الإسراف .

وكان أبو ذرٍ يقول: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سُنَّة نبيّه، والله إنِّي لأرى حقّاً يظفأ وباطلاً يُحيا، وصادقاً يُكذب، وأثرة بغير ثَقْي، وصالحاً مستأثراً عليه..

فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إن أبا ذرٍ مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة . فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: أمّا بعد، فاحمل جندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره! فوجّه معاوية من سار به الليل والنهار، فلَمّا قدم أبو ذرٍ المدينة جعل يقول: تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى، وتقرب أولاد الطلقاء..

ثم إن عثمان نفاه إلى «الربذة»، فلم يزل بها حتّى مات .
والمقام يطول بذكر كلّ ما جرى من إنكار أبي ذرٍ على عثمان ومعاوية؛ فلاحظ المصادر .

وأخرج البخاري في صحيحه من حديث زيد بن وهب، قال: مررت

بالربذة فقلت لأبي ذر: ما أنزلك هذا؟!

قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فقال: أنزلت في أهل الكتاب، فقلت: فينا وفيهم. فكتب يشكوني إلى عثمان، فكتب عثمان: أقدم المدينة. فقدمت فكثر الناس عليّ كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكر ذلك لعثمان فقال: إن شئت تنحيت فكنّت قريباً؛ فذلك الذي أنزلني هذا المنزل..

قال ابن حجر في فتح الباري في شرح الحديث: وفي رواية الطبري أنهم كثروا عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام، فخشي عثمان على أهل المدينة ما خشي معاوية على أهل الشام.

وهكذا الحال في ما جرى من إنكار عمّار وبعض أخلائه على عثمان؛ فلاحظ المصادر.

وفي تاريخ الطبري: إنّ أبا بكر لمّا استخلف قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل، إنّما هي بنو عبد مناف. فقليل له: إنّّه قد ولّى ابنك. قال: وصلته رحم^(١).

ومنهم: خالد بن الوليد؛ قال في الإصابة: وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكره الزبير بن بكار، قال: كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته، فكره ذلك أبو بكر وعرض الدية على متمّ بن نويرة، وأمر خالد بطلاق امرأة مالك، ولم ير أن يعزله..

وفي تاريخ أبي الغداء: فقال عمر لأبي بكر: إنّ سيف خالد فيه

رهق ، وأكثر عليه في ذلك ، فقال : يا عمر ! تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ..

وفي لفظ الطبري : فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب - أي قتل مالك ابن نويرة وقومه - تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر ، وقال : عدو الله ، عدا على امرئ مسلم فقتله ثم نزا على امرأته . وأقبل خالد بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدا الحديد ، معتجراً بعمامة له ، قد غرز في عمامته أسهماً ، فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانزع الأسهم من رأسه فحطّمها ، ثم قال : أرئاء ؟! قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته ... ثم ذكر أن أبا بكر عذره .

وروى ثابت في **الدلائل** : إن خالداً رأى امرأة مالك وكانت فائقة في الجمال ، فقال مالك بعد ذلك لامرأته : قتلتيني .

وقال الزمخشري وأبن الأثير وأبو الفداء والزيدي : إن مالك بن نويرة رضي الله عنه قال لامرأته يوم قتله خالد بن الوليد : أقتلتيني ؟! وكانت جميلة حسناء تزوّجها خالد بعد قتله ، فأنكر ذلك عبدالله بن عمر ، وقيل فيه : أفي الحق أنا لم تجفّ دماؤنا وهذا عروساً باليمامة خالد ؟! ^(١) وفي **تاريخ ابن شحنة** ^(٢) : أمر خالد ضراراً بضرب عنق مالك ، فالتفت مالك إلى زوجته وقال لخالد : هذه التي قتلتني . وكانت في غاية

(١) ولاحظ لمزيد من التفاصيل : تاريخ الطبري ٣/ ٢٤١ ، الكامل في التاريخ - لابن الأثير - ٣/ ١٤٩ ، أسد الغابة ٤/ ٢٩٥ ، تاريخ دمشق - لابن عساكر - ٥/ ١٠٥ ، خزانة الأدب ١/ ٢٣٧ ، تاريخ ابن كثير ٦/ ٣٢١ ، تاريخ الخميس ٢/ ٢٣٣ ، الإصابة ١/ ٤١٤ و ٣/ ٣٥٧ ، الفائق ٢/ ١٥٤ ، النهاية ٣/ ٢٥٧ ، تاريخ أبي الفداء ١/ ١٥٨ ، وتاج العروس ٨/ ٧٥

(٢) في هامش الكامل - لابن الأثير - ٧/ ١٦٥ .

الجمال .

فقال خالد : بل قتلك رجوعك عن الإسلام .

فقال مالك : أنا مسلم .

فقال خالد : يا ضرار ! اضرب عنقه ! فضرب عنقه ، وفي ذلك يقول

أبو نمير السعدي :

ألا قل لحي أوطوا بالسناكب تطاول هذا الليل من بعد مالك

قضى خالد بغياً عليه بعمره وكان له فيها هوى قبل ذلك

فأمضى هواه خالد غير عاطف عنان الهوى عنها ولا متمالك

وأصبح ذا أهل وأصبح مالك إلى غير أهل هالكاً في الهوالك

فلما بلغ ذلك أبا بكر وعمر قال عمر لأبي بكر : إن خالداً قد زنى

فاجلده .

قال أبو بكر : لا ؛ لأنه تأول فأخطأ .

قال : فإنه قتل مسلماً فاقتله .

قال : لا ، إنه تأول فأخطأ . ثم قال : يا عمر ! ما كنت لأغمد سيفاً سلّه

الله عليهم .

ورثني مالكا أخوه متمم بقصائد عديدة^(١) .

وفي تاريخ الخميس : اشتدّ في ذلك عمر وقال لأبي بكر : ارجم

خالدأ ، فإنه قد استحلّ ذلك .

فقال أبو بكر : والله لا أفعل ، إن كان خالد تأول أمراً فأخطأ^(٢) .

(١) لاحظ : تاريخ أبو الفداء ١/ ١٥٨ .

(٢) تاريخ الخميس ٢/ ٢٣٣ .

وفي شرح المواقف : فأشار عمر على أبي بكر بقتل خالد قصاصاً . فقال أبو بكر : لا أعمد سيفاً شهره الله على الكفار . وقال عمر لخالد : لئن وليت الأمر لأقيدنك به ^(١) .

وفي تاريخ دمشق : قال عمر : إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال ..

وكان خالداً إذا صار إليه شيئاً قسمه في أهل الغنى ولم يرفع إلى أبي بكر حسابه ، وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل الأشياء التي لا يراها أبو بكر ، وأقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته ، وصالح أهل اليمامة ، ونكح ابنة مجاعة بن مرارة ، فكره ذلك أبو بكر ولم ير أن يعزله ^(٢) .

هذا ، وقد كان مالك من أصحاب النبي ﷺ ، وأستعمله ﷺ على صدقات قومه ، وهو من أشرف الجاهلية والإسلام .

ثم إن ضرار بن الأزور زميل خالد بن الوليد في قتل مالك قد شن الغارة على حي من بني أسد فأخذ امرأة جميلة فوطئها بهبة من أصحابه ، ثم ذكر ذلك لخالد ، فقال : قد طيبتها لك ؛ فكتب إلى عمر فأجاب برضخه بالحجارة ^(٣) .

وبعد فتح الشام أخرج ابن أبي شيبة وآبن المنذر ، عن محارب بن دثار : إن أناساً من أصحاب النبي ﷺ شربوا الخمر بالشام وقالوا : شربنا لقول الله : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما

(١) المواقف : ٤٠٣ ، شرح المواقف ٣٠٧/٨ - ٣٠٨ .

(٢) تاريخ دمشق ١١٢/٥ .

(٣) لاحظ : تاريخ دمشق ٣١/٧ ، خزنة الأدب ٨/٢ ، الإصابة ٢٠٩/٢ .

طعموا ﴿١﴾ .. الآية (٢) .

وفي كتاب من أبي بكر له : لعمرى يا بن أم خالد ! إنك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد . كبه إليه لما قال خالد لمجاعة : زوّجني ابتك . فقال له مجاعة : مهلاً ، إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك . قال : أيّها الرجل ! زوّجني . فزوّجه ، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب إليه الكتاب ، فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول : هذا عمل الأعيسر . يعني عمر بن الخطاب (٣) .

هذا ، وقد كان خالد بن الوليد من نجوم قيادات الفتوح .

وفي الإصابة - في ترجمة خالد بن الوليد - : قال عمر لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطي شيئاً إلّا بأمرك . فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد : إمّا أن تدعني وعملي وإلّا فشأنك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : فمن يجزي عني جزاء خالد . قال عمر : أنا . فتجهّز عمر ...

إلى أن قال - بعد ثني أبي بكر لعمر عن الخروج - : فلما قبل عمر كتب إلى خالد : أن لا تعطي شاة ولا بغيراً إلّا بأمرى . فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه . فعزله ، ثمّ كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى إلّا أن يخليه يفعل ما شاء فيأبى عمر ، قال مالك : وكان عمر يشبه خالداً (٤) .

وعن عبد الرحمن بن عوف ، قال : إنّه دخل على أبي بكر في مرضه

(١) سورة المائدة ٥ : ٩٣ .

(٢) لاحظ : الدرّ المنثور ٢ / ٣٦١ .

(٣) لاحظ : تاريخ الخميس ٣ / ٣٤٣ ، وتاريخ الطبري ٣ / ٢٥٤ .

(٤) الإصابة ١ / ٤١٥ .

الذي توفي فيه فأصابه مهتماً... فقال أبو بكر: إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلّكم ورم أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألّموا الاضطجاع على الصوف الأزدي كما يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان، والله لأن تقدّم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدّ خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا، وأنتم أول ضالّ بالناس غداً فتصدّونهم عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق! إنّما هو الفجر أو البحر^(١).

وروى البخاري في صحيحه، عن هند بنت الحارث: إنّ أمّ سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فرعاً يقول: سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن؟! وماذا أنزل من الفتن؟! من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلّين؟! ربّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة^(٢)..

قال ابن حجر في فتح الباري في شرح الحديث: وفي رواية سفيان: ماذا أنزل الليلة من الفتن؟! وماذا فتح من الخزائن؟! قال ابن بطال في هذا الحديث: إنّ الفتوح في الخزائن تنشأ عنه فتنة المال بأن يتنافس فيه القتال بسببه، وأن يبخل به فيمنع الحقّ أو يبطر صاحبه فيسرف، فأراد ﷺ تحذير أزواجه من ذلك كلّ، وكذا غيرهنّ ممّن بلغه ذلك.

وقال ابن حجر في شرح «ربّ كاسية...»: واللفظة وإن وردت في أزواج النبي ﷺ لكنّ العبرة بعموم اللفظ؛ كاسية للشرف في الدنيا لكونها

(١) لاحظ: الأموال - لأبي عبيد -: ١٣١، تاريخ الطبري ٥٢/٤، الإمامة والسياسة - لابن قتيبة - ١٨/١، مروج الذهب ٤١٤/١، العقد الفريد ٢٥٤/٢.

(٢) صحيح البخاري ٨٨/٩ ح ١٨ كتاب الفتن ب ٦.

أهل التشريف وعارية يوم القيامة .

كما قد أُشير في أحاديث نبوية أخرى إلى هذه الأوضاع ، نظير ما رواه البخاري ومسلم في كتاب الفتن عنه ﷺ : «إنكم سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها» ^(١) .

ثم إن هذا غيض من فيض ، ولو أراد الباحث استقصاء حوادث الفتوحات والممارسات التي حدثت ، لتوفر لديه مجلداً ضخماً في ذلك ، إن لم يكن مجلدات .

● **الثالثة :** إن الأجواء السائدة لدى المسلمين في عهود الفتوحات الأولى ، وما كان لديهم من حماس ديني ملتهب ، ومن قوة نظر وإشراف في مراقبة الحكم والحاكم ، بجانب عوامل أخرى - نتعرض لها كلها - من إعداد وصنع رسول الله ﷺ ، كانت سبب النصر والظفر والفتوحات .

وبعبارة أخرى : الخطة المرسومة من القرآن الكريم والرسول ﷺ للمسلمين ولوظيفة الحكم من بعده ، سواء على صعيد التقنين ، أو على صعيد البناء الروحي للمسلمين ، أو على صعيد البناء العسكري والقوة الضاربة ، أو على صعيد الوحدة الاجتماعية المترابطة ، أو على صعيد بناء الدولة وأجهزة الحكم ؛ كانت تملئ القيام بالجهاد وفتح البلدان .

هذا كله بالإضافة إلى البريق النير الذي أوجده رسول الله ﷺ عن الدين الإسلامي في أسماع الملل والأقوام المختلفة ، من العدالة وكرائم الخلق في القانون والتنفيذ ، ونشدة الحق والنصفة ..

فإن نظرة تحليلية في الأصول الاجتماعية والسياسية والقانونية التي

(١) صحيح البخاري ٨٤/٩ ح ٤ كتاب الفتن ب ٢ .

كانت العرب تعيشها قبل البعثة النبوية الشريفة مقارنة بالنظام الاجتماعي والسياسي والروحي والقانوني الذي بناه وأسس رسول الله ﷺ ، هذه النظرة والمقارنة كفيلة لفهم أن القيادة في الفتوحات بعد رسول الله ﷺ لم تكن تلعب ذلك الدور الخطير المؤثر في الوصول إلى نتائج الفتوحات ، سواء القيادة السياسية ، أو القيادة العسكرية .

ويستطيع القارئ أن يلمس ذلك من بعض النصوص التاريخية أو الروائية التي ذكرناها آنفاً ، فضلاً عما لو تتبع واستقصى ذلك بنفسه من خلال كتب السير والتاريخ والحديث ؛ فإن سرّ الفوز بتلك النتائج يكمن في عظمة النظام الذي بنى صرحه النبي ﷺ على الأصعدة المختلفة .

وقد أشار إلى ذلك عدّة من الباحثين في حقل العلوم الإسلامية أو العلوم الإنسانية ، ولنضرب الأمثلة لنماذج تلك العوامل المزبورة :

✽ فأمّا رقابة المسلمين الشديدة على الحكم والحاكم ، التي ربّاهم عليها رسول الله ﷺ ، ومحاسبتهم لكلّ صغيرة وكبيرة ، وأنّ الظروف المحيطة بالحاكم والحكم ما كانت تسمح له بتغيير كلّ معالم النظام السياسي والاجتماعي والمعنوي الذي شيّده رسول الله ﷺ ؛ فمن أمثلة ذلك :

قول عمر بن الخطّاب لابن عباس : لو وليها عثمان لحمل بني أبي معيط على رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه^(١) .

وفي نقل آخر عنه : لو وليتها عثمان لحمل آل أبي معيط على رقاب الناس ، والله لو فعلت لفعل ، ولو فعل لأوشكوا أن يسيروا إليه حتّى يجزّوا رأسه^(٢) ..

(١) أنساب الأشراف ١٦/٥ .

(٢) ذكره القاضي أبو يوسف في الآثار : ٢١٧ .

وهذا ما حدث؛ إذ ثار المسلمون على عثمان وقتلوه، بسبب الإثرة
في السلطة وفي المال وفي مقدرات المسلمين التي خصصها بذويه
وعشيرته وبني أمية.

وهذه القوة لرقابة الناس التي يصورها عمر في العقد الثالث الهجري
فكيف هي في العقد الثاني، وفي أوائل العهد الذي تلا العهد النبوي؟
وقول علي عليه السلام لعثمان؛ وقد كان في بيت المال بالمدينة سقط فيه
حلي وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن
عليه في ذلك، وكلموه فيه بكلام شديد حتّى أغضبوه فقال: هذا مال الله،
أعطيه من شئت وأمنعه من شئت، فأرغم الله أنف من رغم..
وفي لفظ آخر: لأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف
أقوام.

فقال له علي عليه السلام: إذا تُمنع من ذلك ويُحال بينك وبينه^(١).
وقد صعد عمر المنبر يوماً وقال: لو صرفناكم عمّا تعرفون إلى ما
تتكرون ما كنتم؟

فأجابه علي عليه السلام: إذا كنّا نستتيبك، فإن تبت قبلناك.

فقال: وإن لم؟

قال: نضرب عنقك الذي فيه عيناك.

فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من إذا اعوججنا أقام
أودنا^(٢).

(١) أنساب الأشراف ١٦١/٦.

(٢) مناقب الإمام علي عليه السلام - للخوارزمي - : ٩٨ ح ١٠٠.

والحاصل : إن أمثلة هذا العامل كثيرة جداً يجدها الباحث بمجرد رجوعه إلى ذاكرته في أحداث العقود الهجرية الأولى التي تلت العهد النبوي الأول .

نعم ، ليس المراد من وجود هذا العامل أنه لم تكن للتكتلات السياسية في صفوف الصحابة - من المهاجرين والأنصار ، وأتلاف السقيفة ، والبيت الهاشمي وأنصاره - أي دور ، إما في تغيير وتبديل الخطّة المرسومة من قبل رسول الله ﷺ ، وإما في المحافظة على بقائها ؛ إذ الأمور نسبية ، وإنما الغرض بيان الجانب الغالب .

*** وأما تعيين وظيفة المسلمين والدولة من قبل النبي ﷺ بشأن الفتوحات ؛** فقد كان إخبار النبي ﷺ بفتح المسلمين لفارس والروم وسقوط ملك كسرى وقصر على أيديهم ، إخباراً ملأ أذان المسلمين في مواقع عديدة أنبأ فيها بذلك ، كما في حفر الخندق في غزوة الأحزاب^(١) وغيره ، وقد كان وعداً قطعياً منه ﷺ بذلك للمسلمين ، وهذا الوعد الصادق استيقن به المسلمون ، كما رأوا صدق الوعود منه ﷺ من قبل . وكان هذا باعثاً للأمل ولقوة الروح فيهم التي لا تستجيب لليأس أو الخوف .

كما إن تعيين القرآن الكريم والنبي الأمين ﷺ هذه الوظيفة للمسلمين كان بياناً لمشروعية الجهاد في نفسه لدى العديد ممن لم ير مشروعية لما نتج عن بيعة السقيفة .

ولقد كان في أمره ﷺ - في أيامه الأخيرة - بتجهيز جيش أسامة . وحثه على إنفاذه ، ولعنه من تخلف عنه ، دلالة على مدى العناية الشديدة

(١) أنظر : تاريخ الطبري ٩٢/٢ .

التي كان يوليها ﷺ لأمر الجهاد .

* وأما روح الفداء وطلب الشهادة والتضحية ، والتعطش لدرجات الآخرة والرضوان ؛ فقد كانت ما تزال ملتهبة بفضل أنوار النبوة وقرب العهد من الوحي ، ومشاهد النبي ﷺ الحية في أذهانهم ، ووقائع الغزوات الكبرى في الإسلام ، التي خلّدت أسماء نجوم الشهادة ، فلم تكن هناك تعبئة من القيادة السياسية أو العسكرية للجهاد بقدر ما كانت محاولة تدبير للحالة الاندفاعية الموجودة والحماس الملتهب .

● الرابعة : سبب إخفاق الفتوح عن الوصول إلى الوعود الإلهية ؛ فإنّ المحاولة في التدبير هي التي أضفت لوناً على الجهاد والفتوح ، وغيّرت من خلق وغايات هذا الباب ، وساهمت في تقليل حيوية عوامله ومعدّاته ، على نحو تدريجي ، بسبب الممارسات التي ارتكبت ، سواء بالإضافة إلى البلدان المفتوحة وأهاليها ، أو بالإضافة إلى الرموز الخاصة من القيادات العسكرية وغيرها ، ممّن كانت تربطه بالسلطة علائق معينة ، وسواء على صعيد المال أو الأعراض أو النفوس ..

مضافاً إلى إنّ الانفتاح على الأقوام الأخرى كان يتطلّب كفالة شرعية من مختلف الجوانب الروحية والعلمية والتربوية والقانونية والسياسية ، وغيرها من الجوانب التي لم تكن القيادة المركزية مؤهلة لتلك المهمة في ظلّ التحديد والحصار لدور الإمام عليّ عليه السلام ، حامل علم النبي ﷺ ، والقيّم الثاني المبين للدين ، والوزير لرسول الله ﷺ في تأسيس الدعوة وتشييدها حتّى آخر لحظات حياة النبي ﷺ ..

بسبب كلّ هذا لم يُكتب للوعد الإلهي في قوله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

المشركون»^(١)، الذي تكرر في ثلاث سور - وغيره من الوعود الإلهية، كقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾^(٢)، ووعده تعالى في قوله: ﴿ونريد أن نمنَّ على الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُم الْوَارِثِينَ﴾^(٣)، وقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(٤) - التحقُّق في العاجل .

● الخامسة : الاهتراء الداخلي الذي بدأ عدّه العكسي وأخذ يدبّ في جسد الأمة ووحدة المسلمين ؛ وقد حذّر منه النبي ﷺ في طوائف من الحديث، نظير قوله ﷺ عندما أشرف على أطم من أطام المدينة : «هل ترون ما أرى ؟!» .

قالوا : لا .

قال : «فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»^(٥) .

وقوله ﷺ عندما استيقظ من النوم محمراً وجهه : «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب»^(٦) .

وقوله ﷺ : «هلكة أمتي على يدي غلّمة من قريش» فقال مروان : لعنة الله عليهم غلّمة ؛ رواه البخاري ، عن ابن سعيد ، عن جدّه ، وقال :

(١) سورة التوبة ٩ : ٣٢ ، وسورة الفتح ٤٨ : ٢٨ ، وسورة الصفّ ٦١ : ٩ .

(٢) سورة الأنبياء ٢١ : ١٠٥ .

(٣) سورة القصص ٢٨ : ٥ .

(٤) سورة النمل ٢٧ : ٦٢ .

(٥) صحيح البخاري ٨٦/٩ ح ١١ كتاب الفتن ب ٤ ، ورواه مسلم أيضاً في صحيحه . ١٦٨/٨ .

(٦) صحيح البخاري ٨٦/٩ ح ١٠ كتاب الفتن ب ٤ .

فكنت أخرج مع جدّي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رأيهم غلماناً أحداً قال لنا: عسى أن يكونوا منهم^(١) ..

وقال ابن حجر في فتح الباري - بعد نقل الحديث ؛ إذ ذكر البخاري تنمّة له من لعن مروان لأولئك الغلّة - : تنبيه : يتعجب من لعن مروان الغلّة المذكورين مع إن الظاهر أنّهم من ولده ، فكأن الله تعالى أجرى ذلك على لسانه ليكون أشدّ في الحجّة عليهم لعلمهم يتعظون ، وقد وردت أحاديث في لعن الحكم والد مروان وما ولد ، أخرجها الطبراني^(٢) .

وقد رواه مسلم في صحيحه ، عنه ﷺ ، قال : « يهلك أمتي هذا الحيّ من قريش » .

قالوا : فماذا تأمرنا ؟

قال : « لو أن الناس اعتزلوهم »^(٣) .

قال النووي - في شرحه بعد مطابقته بين الروایتين - : إن المراد برواية مسلم طائفة من قريش ، وهذا الحديث من المعجزات ، وقد وقع ما أخبره ﷺ^(٤) .

وقد تقدّم أنّ أبا بكر ابتدأ بتولية ابن أبي سفيان ، وقد أمن بذلك من مواجهة أبي سفيان لتنصيبه في السقيفة .

وقوله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض ، ليرفعن إليّ رجال منكم حتّى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول : أيّ رب أصحابي ،

(١) صحيح البخاري ٨٥ / ٩ ح ٩ كتاب الفتن ب ٣ .

(٢) فتح الباري ١٣ / ١٣ ذح ٧٠٥٨ .

(٣) صحيح مسلم ١٨٦ / ٨ كتاب الفتن .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٣٥ / ١٨ ح ٢٩١٧ .

فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(١).

وقوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظماً بعده أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، أقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي»^(٢).

قال ابن حجر في فتح الباري: إن كانوا ممن لم يرتد لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال البدن أو بدعة من اعتقاد القلب؛ فقد أجاب بعضهم بأنه يحتمل أن يكون أعرض عنهم ولم يشفع لهم اتباعاً لأمر الله فيهم حتى يعاقبهم على جنائتهم، ولا مانع من دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكبائر من أمته فيخرجون عند إخراج الموحدين من النار، والله أعلم^(٣).

وقد تواصل هذا الاهتراء في نظام الحكم إلى أن وصل إلى الحالة التي أشرنا إليها في عهد عثمان، فقد أعطى عبدالله بن سعد بن أبي سرح - أخاه من الرضاعة - الخمس من غنائم إفريقية في غزوها الأول^(٤).

قال البلاذري في الأنساب: لما قدم الوليد - ابن عقبة بن أبي معيط ابن أبي عمرو بن أمية، الذي نزلت فيه آية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِإٍ﴾^(٥) - الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال، فاستقرضه مالاً، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذ، فأقرضه عبدالله ما سأل، ثم إنه اقتضاه إياه،

(١) صحيح البخاري ٨٣/٩ ح ٢ كتاب الفتن ب ١.

(٢) صحيح البخاري ٨٣/٩ ح ٣ كتاب الفتن ب ١.

(٣) فتح الباري ٥/١٣ ذ ٧٠٥٠ و ٧٠٥١.

(٤) تاريخ ابن كثير ١٥٢/٧، أنساب الأشراف ٢٦/٥، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد ٦٧/١.

(٥) سورة الحجرات ٤٩: ٦.

فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود :
إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد في ما أخذ من المال ..

فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظنّ أنّي خازن للمسلمين ،
فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك . وأقام بالكوفة بعد إلقائه
مفاتيح بيت المال ^(١) .

حتّى آل الأمر إلى ليالي بني أميّة وبني العباس ونظام حكمهم ، وعن
السيدة عائشة : إنّ الخلافة سلطان الله يؤتيه البرّ والفاجر ^(٢) .

وروى البخاري ، عن أيّوب ، عن نافع ، قال : لما خلع أهل المدينة
يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال : إنّني سمعت
النبي ﷺ يقول : ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة ، وإنّا قد بايعنا هذا
الرجل على بيع الله ورسوله ، وإنّي لا أعلم غدرأ أعظم من أن يبايع رجل
على بيع الله ورسوله ثمّ ينصب له القتال ، وإنّي لا أعلم أحداً منكم خلعه
ولا بايع في هذا الأمر إلّا كانت الفیصل بيني وبينه ^(٣) .

وقد قتل يزيد في العام الأوّل من خلافته سبط الرسول ﷺ ..

وفي العام الثاني استباح المدينة المنورة وأهلها ونساءها ..

وفي العام الثالث رجم الكعبة ..

بل إنّ أمر بأخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم خول له يحكم في
دمائهم وأموالهم وأهلهم بما شاء ؛ مع إنّ البخاري روى في صحيحه ، عن

(١) أنساب الأشراف ٣٠/٥ ، ولاحظ : العقد الفريد ٢٧٢/٢ ؛ وغيرها من الأرقام التي
سَطَرتها الكتب والسير من هذا القبيل .

(٢) الدرّ المنثور ١٩/٦ .

(٣) صحيح البخاري ١٠٣/٩ ح ٥٥ كتاب الفتن ب ٢١ .

ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم في ما أحبّ أو كره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة...»^(١).

● السادسة: من كلّ ما سبق يتّضح جلياً سرّ تركيز عليّ عليه السلام في عهده الذي تسلّم فيه مقاليد الأمور على إصلاح الداخل والبناء الذاتي؛ إذ كيف يدعو الآخرين من الملل الأخرى إلى الدين، وأبناء الدين الإسلامي أنفسهم لا يعملون به؟! وعظّموه ومحووا رسومه التي كانت على عهد النبي الأكرم ﷺ، ومنطق القرآن: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿^(٢)..

و﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾^(٣)..

وقال تعالى: ﴿وأتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة وأعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾ * وأذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيّات لعلّكم تشكرون * يا أيّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * وأعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عنده أجرٌ عظيمٌ ﴿^(٤).

وذكر ابن حجر في فتح الباري في شرح كتاب الفتن، الذي صدره

(١) صحيح البخاري ١١٣/٩ ح ٨ كتاب الأحكام / باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية / باب ٤.

(٢) سورة الصفّ ٦١: ٢ و ٣.

(٣) سورة البقرة ٢: ٤٤.

(٤) سورة الأنفال ٨: ٢٥ - ٢٨.

البخاري بالآية ، قال : أخرج الطبري من طريق الحسن البصري ، قال : قال الزبير : لقد خُوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ ، وما ظننا أننا خُصصنا بها ..

وقال : عند الطبري من طريق علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قال : أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم ؛ فيعمّهم العذاب .

ولهذا الأثر شاهد من حديث عدي بن عميرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتّى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة»^(١) .

فإذا لم يحكم العدل في ما بين المسلمين فكيف يطالب غيرهم به ؟ !
وقد روي - ما مضمونه - : إن قائلاً قال للإمام السّجّاد عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام : أتركت الجهاد في الثغور وخشونته وأقبلت على الحجّ ونعمته ؟ ! وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْمَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾^(٢) .. الآية .
فقال له زين العابدين عليه السلام : «أكمل الآية» .

فقال : ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود

(١) فتح الباري ١٣ / ٤ ح ٧٠٤٨ .

(٢) سورة التوبة ٩ : ١١١ .

الله وبشّر المؤمنين ﴿١﴾ .

فقال له زين العابدين عليه السلام : «إذا وجدت من هم بهذا الوصف فنحن نجاهد معهم» ..

ويا له من شرط صعب ! الحفظ لحدود الله !

ولقد خطب الإمام علي عليه السلام في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة ، فقال : «ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال ؛ فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وفرّق في البلدان ، لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه أضيق» (٢) .

فسيف علي عليه السلام الذي أقيم به صرح الإسلام ، وشيّد به دعائم الدولة الإسلامية ، عاد مرّة أخرى لإزالة الأود والعوج الذي حصل في نظام المسلمين السياسي والاجتماعي ، وبناء النموذج الداخلي المثالي للدعوة إلى الإسلام .

بل إن علياً عليه السلام أقام - قبل تسلّمه مقاليد الأمور - رابطاً في الخندق العلمي لوجه الدين الإسلامي ، أمام تحدّيات المسائل الحرجة التي ابتليت بها الأمة ولم يكن لها من يطّلع على حكم الشريعة فيها ، وقد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من الموارد لذلك ، وكذا أمام تحدّي الملل والنحل الأخرى (٣) .

(١) سورة التوبة ٩ : ١١٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٩٠ / ١ ، السيرة الحلبية ٨٧ / ٢ .

(٣) لاحظ : ما أخرجه الحافظ العاصمي في كتابه : زين الفتى في شرح سورة ﴿هل أتى﴾ ، في وفد النصاري وأستلثهم لأبي بكر ، وغير ذلك من الوقائع .

● **السابعة :** وننتهي في الفتوحات إلى هذه النقطة : وهي أن عقدة الملل الأخرى - لا سيما الغربيين - النفسية والذهنية تجاه الدين الإسلامي ، وعدم إقبالهم عليه ، وعدم البحث عن حل لمشاكلهم من منظار ديننا - وإن كان له أسباب متعدّدة صاغها أعداء الإسلام والمسلمين - مضافاً إلى النفسية العدوانية ، والعقلية الاستعلائية التي تصعّر بخدّهم ؛ إلا إن شطراً مهماً من تلك الأسباب هي ممارسات المسلمين أنفسهم ، وبالأخصّ والتحديد هي رواسب الممارسات التي وقعت في فتوحات البلدان ..

فإنّ سلبّيات كيفية الأداء في هذه الفتوحات وما رافقها من تجاوز للموازين الدينية المقرّرة ، التي تحافظ على روح خلق الشريعة ، فإنّ الحفاظ لحدود الله تعالى في باب الجهاد وغيره هو الكفيل الأمثل لدخول الناس أفواجاً في دين الله تعالى ، والموجب لتحقيق الوعد الإلهي - الذي تأخّر إلى هذا اليوم - بإظهار الإسلام في كافّة أرجاء المعمورة .

ونلخص ما تقدّم في الحلقات السابقة من هذا الموضوع بجملة مختصرة ، وهي : إنّ البحث عن «عدالة الصحابة» لا بُدّ من التعمّق فيه ، ورفع الإجمال الذي يكتنفه ..

هل المراد به : كلّ الصحابة ، أم بعضهم ؟!

ومن هم أولئك البعض ؟! هل هم تكتّل بيعة السقيفة ورموزها ، أم يشمل سعد بن عبادَةَ والأنصار والبيت الهاشمي وعليّاً عليه السلام وسلمان وأبا ذرّ والمقداد وعمّاراً ، وغيرهم ممّن كان في تكتّل عليّ عليه السلام ؟!

فهل الدائرة هي بحسب ما يُذكر في تعريف الصحابي ، أم أضيق ؟!

ثمّ ما المراد بالعدالة ؟! هل هي بمعنى الإمامة في الدين ؟!

وما المراد بحجّية قول وعمل الصحابي ؟! هل هي بمعنى العصمة ؟!

أم بمعنى حجّة الفتوى كمجتهدين ، مثل بقية المجتهدين ، بحدود اعتبار الاجتهاد وضوابط موازينه الشرعية ؟!

وعلى هذا ، فلم لا يحتمل القائل خطأ أصحاب السقيفة في بيعتهم ، وخطأ اجتهادهم مع وجود النصّين القرآني والنبوي على إمامة عليّ عليه السلام ؟! ولم يدّعي القائل امتناع احتمال ذلك ؟!

وكيف يبيّن الملازمة بين فضيلة الشيخين ، وبين امتناع خطأ اجتهادهما ، بعد فرض تسليمه بعدم عصمتها ؟!

وإذا كانت المسألة اجتهادية فلم لا يسوّغ الاجتهاد المخالف ؟!

أم هي بمعنى حجّة روايتهم كرواة ثقات ، بحدود حجّة قول الراوي في الخبر ؟!

ثمّ ما هو الغرض المترتب على سدّ الحديث والكلام عمّا وقع منهم وبينهم ؟!

وكيف يتلاءم ذلك مع دعوى الاقتداء بهم ، إذا لم تعرف سيرتهم وأعمالهم ؟!

ونذيل المقال ببعض الأحاديث التي ذكرها أصحاب الصحاح :

١ - روى البخاري في صحيحه ، عن أبي وائل ، عن حذيفة بن اليمان ، قال : إنّ المنافقين اليوم شرّ منهم على عهد النبي ﷺ ، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون^(١) .

وهو مثار سؤال واجه كثيراً من الباحثين في التاريخ الإسلامي ؛ إذ أنّ

القرآن الكريم في سورة المباركة أشار إلى مشكلة كبيرة وخطيرة كانت قائمة تواجه الرسول ﷺ والمسلمين ، وهي أصناف وطوائف المنافقين ، وقد أشرنا في ما سبق إلى بعض تلك السور الكريمة ، ولا يفتأ القرآن يتابعهم في كل خطواتهم ، التي كانت خطيرة على أوضاع المسلمين حتى آخر حياة النبي ﷺ ..

ولكن فجأة لا يرى الباحث في التاريخ وجوداً لهذه المشكلة بعد وفاة الرسول ﷺ ! فهل إن أفراد طوائف ومجموعات النفاق قد تابوا وأمنوا بعد وفاة النبي ﷺ ؟ ! أم إن الوضع - كما يصفه حذيفة بن اليمان ، الخبير بمعرفة المنافقين ، كما في روايات الفريقين ، والذي شهد مؤامرة العقبة التي دُبرت في غزوة «تبوك» لاغتيال رسول الله ﷺ - عاد مؤاتياً لتحركهم وفسح المجال لهم بالجهر بمقاصدهم التي يحكيونها ضد الإسلام ؟ !

٢ - وروى أيضاً ، عن أبي الشعثاء ، عن حذيفة ، قال : إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان ^(١) .

٣ - وروى مسلم في صحيحه ، عن قيس ، قال : قلت لعمار : أرايتم صنعكم هذا الذي صنعتم في أمر عليّ ، أرايأ رأيتموه ، أو شيئاً عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟ !

فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة ، ولكن حذيفة أخبرني ، عن النبي ﷺ ، قال : قال النبي ﷺ : في أصحابي اثنا عشر منافقاً ، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في

(١) صحيح البخاري ١٠٤/٩ ح ٥٨ كتاب الفتن ب ٢١ .

سمّ الخياط ، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة ؛ وأربعة لم أحفظ ما قال شعبة فيهم .

والذيل من قول الراوي عن شعبة ، عن قتادة ، عن أبي نضرة ، عن قيس ^(١) .

وروى مثله بطريق آخر ^(٢) .

وما قاله عمّار بيّن ؛ لأنّ تنصيب النبي ﷺ لعليّ عليه السلام يوم الغدير كان على ملاء الناس الراجعين من حجة الوداع ، وغيرها من المواطن الأخرى ، وإنّما أراد عمّار بيان أنّ مناوئي عليّ عليه السلام وخصومه كان حذيفة قد عدّهم من الاثني عشر منافقاً الذين يمتنع دخولهم الجنة .

٤ - وروى بعد الحديثين السابقين ، عن أبي الطفيل ، قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله ، كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك !

قال : كنّا نخبر أنّهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أنّ اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ^(٣) . . الحديث .

٥ - وروى مسلم ، عن ابن عمر : إنّ رسول الله ﷺ قام عند باب حفصة ، فقال بيده نحو المشرق : «الفتنة ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان» قالها مرّتين أو ثلاثاً ^(٤) .

(١) صحيح مسلم ١٢٢/٨ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .

(٢) صحيح مسلم ١٢٢/٨ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .

(٣) صحيح مسلم ١٢٣/٨ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .

(٤) صحيح مسلم ١٨١/٨ كتاب الفتن وأشراف الساعة .

وقال عبيد الله بن سعيد في روايته: قام رسول الله ﷺ عند باب عائشة^(١) ..

وروى عن ابن عمر، قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: رأس الكفر من هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان. يعني المشرق. والذيل من تفسير الراوي^(٢).

٦ - وروى أيضاً، عن أبي سعيد الخدري، قال: أخبرني من هو خير مني، إن رسول الله ﷺ قال لعمار حين جعل يحفر الخندق وجعل يمسح رأسه ويقول: بؤس ابن سمية، تقتلك فئة باغية. وفي طريق: ويس أو: يا ويس ابن سمية^(٣) ..

قال النووي في شرح الحديث: قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً عليه السلام كان محملاً مصيباً، والطائفة الأخرى بغاة، لكنهم مجتهدون فلا إثم عليهم لذلك، كما قدّمناه في مواضع، منها هذا الباب .. وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه، منها:

إن عمّاراً يموت قتيلًا، وإنه يقتله مسلمون، وإنهم بغاة، وإن الصحابة يقاتلون، وإنهم يكونون فرقتين: باغية وغيرها، وكل هذا وقع مثل فلقي الصبح، صلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى^(٤).

وروى بطرق أربعة أخرى ما يقرب من ألفاظ هذا الحديث من أن

(١) صحيح مسلم ٨ / ١٨١ كتاب الفتن وأشراط الساعة .

(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٨١ كتاب الفتن وأشراط الساعة .

(٣) صحيح مسلم ٨ / ١٨٥ - ١٨٦ كتاب الفتن وأشراط الساعة .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٣٤ ح ٢٩١٦ .

عمّاراً تقتله الفئة الباغية^(١).

هذا ، وإذا كان النووي يجوّز خطأ اجتهد معاوية لوجود النصّ على حقّ وصواب عليّ عليه السلام ، فلمَ لا يجوّز النووي وأهل الجماعة خطأ اجتهد الشيخين مع وجود النصّ على عليّ عليه السلام ؟!

فإذا كان الاجتهاد ممكن مع وجود النصّ ، ويمكن تأوّل المجتهد للنصّ ، فلمَ لا يمكن خطأ المجتهد في تأوّله ؟!

ولمَ يمتنع خطأ اجتهد أصحاب السقيفة في تأوّلهم للنصّ على عليّ عليه السلام ؟!

ولمَ لا يسوّغ أهل الجماعة لأنفسهم الاجتهاد في صحّة أو خطأ بيعة السقيفة ، ويفتحوا باب الاجتهاد في ذلك ما دامت أنّ المسألة اجتهادية ؟! فكيف يدّعون فيها الضرورة أو التسالم ويغلقون باب الاجتهاد والفحص والتحري عن الحقيقة ؟!

٧ - وروى أيضاً ، عن أبي إدريس الخولاني ، كان يقول حذيفة بن اليمان : والله إنّي لأعلم الناس بكلّ فتنة هي كائنة في ما بيني وبين الساعة وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسرّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري ، ولكنّ رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن^(٢) .. الحديث .

وروى أيضاً ، عن عبدالله بن يزيد ، عن حذيفة ، أنّه قال : أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فما منه شيء إلا وقد

(١) صحيح مسلم ٨/ ١٨٥ - ١٨٦ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/ ٣٣ - ٣٤ ح ٢٩١٥ و ٢٩١٦ .

(٢) صحيح مسلم ٨/ ١٧٢ كتاب الفتن وأشرط الساعة .

سألته ، إلا أنني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة^(١) .

٨ - ورووا في الصحاح ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « بينا أنا قائم

- يعني يوم القيامة على الحوض - إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلم .

فقلت : أين ؟ !

فقال : إلى النار والله .

قلت : وما شأنهم ؟ !

قال : إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقري - إلى أن قال : - فلا أراه

يخلص منهم إلا مثل حمل النعم^(٢) .. الحديث .

وهو يطابق قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله

الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه

فلن يضّر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾^(٣) .

ومفاد الآية ملحمة قرآنية عمّا بعد حياة النبي ﷺ .

ثم إن القائلين بعدالة الصحابة ما داموا لا يرون في تفسير فضيلة

الشيخين معنى العصمة ، فلم يدعوا الملازمة بين اجتهداهما في أمر

الخلافة وبين الصواب ، وأن تخطئتهما في ما اجتهدا فيه مخالفة لضرورة

الدين أو للمتسالم عندهم ؟ !

أليست دعوى ضرورة صوابهما هي تثبيت عصمتهما ؟ !

(١) صحيح مسلم ١٧٢/٨ كتاب الفتن وأشراف الساعة .

(٢) صحيح البخاري ٢١٧/٨ ح ١٦٦ كتاب الرقاق باب الحوض .

(٣) سورة آل عمران ٣ : ١٤٤ .

أوليس امتناع الخطأ منهما ينافي القول بأن ما أتيا به هو اجتهاد
منهما؟!!

كما إنه ما هو المحصّل من وراء الفضيلة لهما؟!!

هل بمعنى امتناع خطئهما، وأنّ ما أتيا به لا يمكن أن يُخطئ الواقع؛
فبتوسّط تلك الفضيلة لم يكن ما يريانه اجتهاد، وإنّما هو عين اللوح
المحفوظ؟!!

كلّ هذه الجهات يراها الناظر مدمجة عند القائلين بالمقالة المزبورة!

للبحث صلة ...